أبو ســـليمان المنطقي

للدكتور جواد علي

أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطق شخصية من الشخصيات القوية الفذّة التي ظهرت في عالم بغداد في القرن الرابع للهجرة ، فأثرت في مجتمعات عاصمة العباسيين العلمية وأنديتها الأدبية تأثيراً يشابه تأثير زميله في المهنة الأديب الفرنسي الفيلسوف « فولتير » في باريس عاصمة الفرنسيين[1] . كان إذا تكلم أقنع ، وإذا فاه أسمع ، وإذا نطق أسكت ، وإذا بحث في موضوع من الموضوعات حلله تحليلاً علمياً منطقياً ، فلا يترك لأحد في الموضوع شبهة أو شكاً . وكيف لا يكون كذلك وسلاحه المنطق وهو سلاح اعتبر في عهد العباسيين من أمضى الأسلحة وأقساها ، وهو رئيس مناطقة بغداد أيضاً ، وزعيم كبير من زعمائهم لا ينازعه في ذلك منازع[2] .

(١) ولد عام ١٦٩٤ وتوفي عام ١٧٧٨م وكان من أعز أصدقاء الملك فريدريك الكبير ملك بروسيا . وهو من الفلاسفة الاصلاحيين النادرين وقد أصدر مولاند Moland جميع ما قاله هذا الفيلسوف في مكتبة تضمنت اثنين وخمسين مجلداً ظهرت بين عام ١٨٧٨ وعام ١٨٨٥م .

(٢) راجع ابن القفطي أخبار الحكماء ص ١٨٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ

كان للمناطقة في بغداد في القرن الرابع للهجرة دولة ومقام . كانوا لسن الأندية وخطباء المجالس ، وكانوا فقهاء القوم وأطباء المجتمع . كانوا كل شيء وبحثوا في كل شيء ، ولذلك ميزهم الجمهور عن جماعة الفلاسفة الذين كانوا أكثر اتزاناً في باب العلم وأكثر من المناطقة في الكلام تحفظاً . وقد أطلق على كل واحد منهم لقب « المنطقي » ليميزوهم بذلك عن الفلاسفة والمتكلمين . وكان عماد أسلحتهم المنطق : منطق اليونان ، منطق أرسطو[1] ، وفورفوريوس صاحب كتاب « الأيساغوجي » الشهير[2] .

وكان من زعماء الجماعة في القرن الرابع للهجرة صاحبنا « أبو سليمان السجستاني » الذي اشتهر بنبوغه في المنطق ، على الأخص حتى عرف به ، وحتى لقب « بأبي سليمان المنطق » . وكان له منتدى يرتاده كثير من طلاب العلم وروّاد المجالس الأدبية من مختلف أنحاء الدنيا . قصده محمد بن عبدون الجبلي من الأندلس ، وهو أحد الذين ابتلاهم الله بحب الفلسفة والمنطق ولاقى في سبيل غرامه العلمي ألواناً من القسوة والعذاب[3] . وقصده كثير من أبناء سجستان وتركستان وبلاد الشرق حتى كان منزله مثابةً لأهل العلوم القديمة . وله أخبار وحكايات وأسئلة وأجوبة في هذا الشأن على الرغم من عور كان به ، ووضح كان يمنعه من ارتياد منازل الوزراء وكبار رجال الدولة حتى قال في ذلك الشاعر البديهي الأبيات الشهيرة التالية :

أبو سليمان عالم فطن ... ما هو في علمه بمنتقص
لكن تطيرتُ عند رؤيته ... من عورِ موحشٍ ومن برَص

وأقول إن ما يجوز في الغرب قد لا يجوز في الشرق ، لأن الشرق في مطلع نهضة جديدة ، وهي توجب أن يتخلق أبناؤه بأخلاق الأسود ، وما سمعت ولا سمعتم أن الأسد يتعطر ويزدان

أيها الناس

اسمعوا ، وعُوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا

لا تسمحوا للمرأة بأن تتحكم في البيت ، فما كان تحكّمها إلا تحكم الضعفاء ، وهو أشنع ضروب الاستبداد

ولا تسمحوا لأحد أبنائكم أن يستظل بظلكم بعد العشرين ولو كانت مواهبه تبشر بأن سيكون من أعلام الزمان

أما بعد فهذه كلمة عنيفة ، ولكنها حجرٌ متين في بناء الجيل الجديد .

زكي مبارك

(١) راجع Max. Horten. Phil. d. Islam ص ٦٧ والمصادر الأخرى

(٢) Porphyrius فيلسوف شهير من المدرسة الأفلاطونية الحديثة (ولد عام ٢٣٢ وتوفي عام ٣٠٤ م) وكان من أبرز تلاميذ أفلوطين Plotine وقد شرح كتب أفلاطون وأرسطو ، وألف الايساغوجي في المنطق Eisogôgé ، وكان نصرانياً وداً للمسيحية . راجع قاموس الفلسفة لشبدس ٥٠٠ وكذلك كتاب المستشرق الشهير أوليري O'leary وعنوانه : Arabic thought and its place in history ص ٢٢ وما بعدها ، وكتاب ماكس هورتن في الفلسفة الاسلامية ص ٧٦ . وكتب التراجم العربية أمثال الفهرست لابن النديم وأخبار الحكماء لابن القفطي جمال الدين وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وتتمة صوان الحكمة للبيهقي (طبعة لاهور) وغيرها .

(٣) راجع طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسي (المتوفى سنة ٤٦٢ هـ) ص ٨١

ويأتيه مثل ما بوالده وهذه قصة من القصص[١]

انقطع أبو سليمان عن زيارة بيوتات الوزراء ودور أكابر بغداد على الرغم من ميل طبيعي كان فيه يدفعه دوماً إلى تتبع أخبار الدولة والحوادث العامة وسياسة ذلك الوقت ، وما كانت تدبره الأحزاب من مؤامرات وفتن إلى غير ذلك من أمور كان كلفاً بها مشتاقاً إلى معرفتها حتى اتخذ له عيوناً وأرصاداً من تلاميذه وأصدقائه ومحبيه يأتونه بالأخبار أمثال أبي حيان التوحيدي صاحب « الأمتاع والمؤانسة » ؛ وكان ينشى مجالس الرؤساء ويطلع على الأخبار ، ومهما علمه من ذلك نقله إليه وحاضره به . ولأجله صنف كتاب الإمتاع والمؤانسة ، نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل ابن العارض الشيرازي عند ما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة من أخبار[٢] . ولكنه لم ينقطع عن زيارة بعض بيوتات العلم والأدب أو الأنس والطرب ، ولم يأنف أن يزور مثلاً رسل حستان في أيام الجمعة وكان فيهم ابن جبلة الكاتب، وابن برمويه، وابن الناظر أبو منصور وأخوه، وأبو سليمان وبندار المغني، وغزال الراقص، وعلم وراء الستارة (جارية)[٣] وغيرهم من أمثال هذه الطبقة

ولأبي سليمان نفس تمثل نفسية الموسوعيين (الانسكلوبيديين)[٤] بكل معنى الكلمة ؛ تراه يتحدث عن نظرية العلم والمعرفة فيقول : إن العلم صورة المعلوم في نفس العالم ؛ وأنفس العلماء عالة بالفعل ، وأنفس المتعلمين عالة بالقوة . والتعليم هو إبراز ما بالقوة إلى الفعل ؛ والتعلم هو بروز ما هو بالقوة . إلى الفعل . والنفس الفلكية عالة ؛ بالقوة . وكل نفس جزئية تكون أكثر معلوماً وأحكم مصنوعاً فهي أقرب إلى النفس الفلكية تشبهاً بها ونصيراً لها[٥] . وتراه

(١) راجع أخبار الحكماء لجمال الدين بن القفطي المتوفى عام ٦٤٦ هـ وكذلك كتاب الأمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي وهو من الكتب الأدبية الممتازة وقد تضمن أخباراً كثيرة عن أبي سليمان المنطقي السجستاني راجع الأبيات في صفحة ٣١

(٢) راجع أخبار الحكماء صفحة ١٨٦

(٣) راجع الامتاع والمؤانسة ص ٤٢

(٤) وكان من مذهب هؤلاء الاحاطة بكل العلوم ومن أشهر هؤلاء Vincenny V. Beuvais المتوفى عام ١٢٦٤ م وقد استعملت هذه اللفظة بهذا المعنى في النصف الثاني من القرن السادس عشر وظهرت الانسكلوبيدية الفلسفية في فرنسا بين عام ١٧٥١ — ١٧٨٠ م على يد d'alembert وديدرو Diderot وبمساعدة روسو وفولتير وكريم Grimm وهولباخ . ثم انتقلت هذه الحركة إلى ألمانيا وانكلترة وفرنسا وأسبانيا وغيرها من البلاد

(٥) الامتاع ص ٤٠

يتكلم عن القرآن والحديث والأحكام بكل إمعان وإتقان وسعة اطلاع حتى كأنك أمام أحد المفسرين أو الفقهاء أو المحدثين . وقد أكسبته هذه الإحاطة العامة شهرة جعلت البعض يكتبون إليه يسألونه وهم في أقاصي البلاد . كتب إليه أبو جعفر ملك سجستان يسأله عن القرآن والعربية والشعر والأحكام[١]

وتراه يتحدث عن السياسة وصفات الملوك وأنظمة المملكة ، فيجيد في الموضوع كل الإجادة ويأتي بنظريات تكاد تكون من أحدث النظريات . فيصل علم ذلك إلى الوزير أبي العارض فيسأل تلميذه التوحيدي وهو من أعلم الناس بأحوال أبي سليمان هذا السؤال : كيف كان كلام أبي سليمان فينا ؟ وكيف كان رضاه عنا ورجاؤه بنا ، فقد بلغنا أنك جاره ومعاشره ولصيقه الخ[٢] ؟ ولا يستغرب صدور مثل هذا السؤال من وزير ، فلأبي سليمان مجلس له شأن ، ولأبي سليمان دائرة ذات مكانة في البلد ومنزلة .

كانت حلقة أهل المنطق في بغداد حلقة كبيرة ضمت نخبة كانت لهم ثقافة ممتزجة عالية ، لم تكن عربية بحتة ولم تكن يونانية أو فارسية أو سريانية خالصة . كانت تجيد مختلف اللغات، وتحمل مختلف الثقافات . ولقد فضل أهل النظر صاحبنا السجستاني على كثير من زعماء هذه الدائرة ممن كانوا يشتغلون بنفس الموضوع الذي اشتغل فيه السجستاني أمثال ابن زرعة أبي علي عيسى ابن اسحق (ولد سنة ٣٧١ وتوفي سنة ٤٤٨ هـ) ، وهو أحد المتقدمين في علم المنطق وعلوم الفلسفة والنقلة المجودين ، نقل من السريانية بعض كتب أرسطوطاليس[٣] ، وكانت له عناية خاصة على ما يظهر بكتب هذا الفيلسوف ومنطقه دون فلاسفة اليونان الآخرين . وكذلك أبو الخير الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام[٤] المعروف بابن الخمّار ، وابن السمح، والقومسي، ومسكويه ، ونظيف ويحيى بن عديّ وعيسى بن علي[٥] . وكل هؤلاء من مشاهير

(١) الامتاع ص ١٣٠ راجع أيضاً كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي

(٢) الامتاع ص ١٩

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٣٧٠

(٤) الفهرست ص ٣٧٠ وتاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٣ وكان ممن قرأ على يحيى بن عدي وكان يرى الوفاق بين رأي الفلاسفة والنصارى ، وقد تأثر بمنطق فرفوريوس أكثر من غيره على ما يظهر من مؤلفاته في فهرست ابن النديم

(٥) الامتاع ص ٣٣ — ٣٥